قراءة في مقدمة كتاب

"الصناعتين: الكتابة والشعر"

الدكتور حسين أحمد كتانة / الأردن

ملخص المقال

لقد دأب المؤلفون والنقاد منذ القديم، على تصدير كتبهم ومصنفاتهم بخطب ومقدمات، تكون بمثابة الكاشف الذي يسلط الضوء على أهداف المؤلف وغاياته من التأليف، وكذا القضايا العلمية والمنهجية التي تشغل باله وينوي أن يبسط القول فيها.

ويعد هذا المقال محاولة تسعى إلى مقاربة مقدمة كتاب "الصناعتين: الكتابة والشعر" لأبي هلال العسكري، مقاربة تبسط مختلف القضايا والموضوعات التي ألمح إليها أبو هلال في هذه المقدمة، وتبرز مكانتها، ومكانة الكتاب ككل في ميدان التأليف النقدي والبلاغي العربيين.

فما هي المعطيات العلمية التي نثرها أبو هلال في خطبة كتابه؟ وأين تتجلى أهميتها؟.

وكيف عالج جملة من القضايا النقدية التي امتد فيها النقاش منذ عصر الرواة أمثال الأصمعي والمفضل الضبي، إلى عصره، من قبيل قضية الاختيارات الشعرية، وقضية استعمال الغريب في الشعر؟

الحمد لله به أستعين، ومنه أطلب العون والتوفيق.

تمهيد:

وبعد:

فموضوع هذا العرض المتواضع، هو مقدمة كتاب الصناعتين، وهو كتاب اقترن اسمه باسم مؤلفه، ومحت شهرته- أو تكاد- ما ألفه هذا الكاتب من آثار حتى ليكاد يتبادر إلى أذهاننا أن أبا هلال العسكري لم يؤلف غير كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. وأتمنى صادقا أن أعرض هذه المقدمة وأوفيها ما تقتضيه، وأن لا أجحف أبا هلال حقه أو أسيئ إليه بسوء إدراك أو فهم قاصر.

I. كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر

1- مؤلف الكتاب:

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى، العسكري صنف في اللغة كتابا سماه التلخيص، وله أيضا كتاب الصناعتين.

توفي أبو هلال العسكري عام خمس وتسعين وثلاث مائة [1].

2- تحقيق الكتاب:

كتاب الصناعتين حققه الدكتور مفيد قميحة، صدرت الطبعة الأولى منه عام 1981، والثانية عام 1984 عن دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

---

[1] – انظر معجم الأدباء . ياقوت الحموي, الطبعة الأخيرة، منقحة، مضبوطة (مصر، مكتبة عيسى البابي الحلبي، دت)، 8/258.

وسبق هذا التحقيق تحقيق أمين الغانجي بالقاهرة عام 1320هـ، وأيضا تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم سنة 1971.

واعتمدنا في هذا العرض على تحقيق الدكتور: مفيد قميحة في طبعته الثانية والتي صدرت عام 1984.

II. مقدمة الكتاب:

1- نظرة حول المعطيات الواردة في المقدمة:

1.1- ديباجة الكتاب:

بدأ كتاب الصناعتين بديباجة قصيرة جدا حاول فيها أبو هلال الإيجاز، وعدم الإطالة، فحمد الله وصلى على نبيه جريا على العادة.

1.2- افتتاح الكتاب:

غني عن البيان أن للكتابات القديمة تقاليدا وأعرافا، كثيرا ما يلتزم بها الكتّاب، فيفتتحون كتبهم ومصنفاتهم بأسماء الملوك، والوزراء، والأمراء، والقضاة، وأعيان الأمة، والأصدقاء...ألخ. وأبو هلال العسكري يجاري في هذا الباب سابقيه ومعاصريه، من الكتاب في هذه العادة الأدبية. قال أبو هلال: "اعلم علمك الله الخير، وقيضه لك وجعلك من أهله." [2]

ومحقق الكتاب صدر كلام أبي هلال بقوله: " قال أبو هلال لبعض إخوانه"[3].

وكلام العسكري يحتمل أن يكون موجها أيضا إلى عموم القراء والمهتمين.

---

[2]- كتاب الصناعتين. الكتابة والشعر: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. تحقيق الدكتور مفيد قميحة، الطبعة الثانية (بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية 1984).9.

[3]- نفسه: 9.

1.3- الباعث على التأليف:

يبدو من خلال المقدمة أن أبا هلال ألف كتابه هذا لما رأى من شرف علم البلاغة، ونبله وفضله، وقلة الكتب والمصنفات فيه. يقول أبو هلال:

"وقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة" [4]

يسعى أبو هلال من خلال كتابه الصناعتين إلى إغناء المكتبة العربية بكتاب في علم البلاغة، أمام ما يشكو منه هذا العلم من نقص وخصاصة على مستوى التأليف. فإن أبا هلال رأى الكتب التي تعرضت لمباحث علم البلاغة قليلة، لا تتفق ومنزلة هذا العلم، ووجوه الاهتمام به لعظم مكانته، وشرف رسالته. وتبدو من خلال المقدمة نزعة أبي هلال التواقة إلى استقلال علم البلاغة عن غيره من المباحث في الكتب والمصنفات الأدبية، وبعبارة واضحة: إن العسكري تحدوه رغبة في أن يستقل علم البلاغة في كتب خاصة، يؤيد طرحنا هذا قوله وهو يتحدث عن طريقة حضور مباحث هذا العلم في كتاب البيان والتبيين، يقول: "إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة، مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير." [5]

1.4- مكانة الكتاب ضمن ما ألف في بابه:

لا يدعي أبو هلال ريادة التأليف في هذا العلم، ولا يدعي أنه أول من طرق بابه، نفهم ذاك من خلال قوله: "والكتب المصنفة فيه

---

[4] – نفسه: 13.

[5] – كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري: 13.

قليلة" [6] بل أكثر من هذا، يشير العسكري إلى واحد من هذه الكتب التي ألفت في هذا العلم، وهو كتاب البيان و التبيين.

لقد أثنى الجاحظ على الكتّاب ثناء خالدا لما ذكر أنه لم يظفر بما أراد من علم الشعر إلا عند الأدباء الكتّاب: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي، فألفيته لا يعرف إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فرأيته لا ينقد إلا فيما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام و الأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتّاب" [7] ، وقال عنهم أيضاً: " أما أنا فلم أرَ قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً سوقياً "[8]

وكان قول الجاحظ هذا داعية إعجاب الكتّاب به، وسر هيامهم بشخصه وبكتابه، لما تضمنه من آراء جعلوها مورد فصاحتهم، ومنبع بلاغتهم، فلا غرو أن يتخذه العسكري إماما، وأن يثني على كتابه، ويذكر بعضا من مزاياه وفوائده، فيقول: "وهو لعمري كثير الفوائد، جمع المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة" [8].

إن كتاب الصناعتين مسايرة من العسكري لجهود سابقيه من العلماء، فلم يكن كتاب البيان والتبيين الكتاب الوحيد الذي أعجب به العسكري، لقد تأثر الرجل بما سبقه من كتب: "نقد الشعر" لقدامة ابن

---

[6] – نفسه: 13.

[7] – الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، الصاحب بن عباد، تحقيق محمد حسن آل ياسين (بغداد– العراق، مكتبة النهضة 1965).31– 32. وانظر : العمدة لابن رشيق القيرواني ، 2/ 105

[8] - البيان والتبيين : الجاحظ ، 1/ 137 ، ت: عبد السلام هارون ، دار الفكر ، دار الجيل ، 1990 – 1410هـ ، بيروت

[8] – كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري: 13.

جعفر(-337 ه) ، وكتاب "البديع" لعبد الله ابن المعتز(296 ه)، ومن تتبع الكتابين معا، سيقف على مدى تأثر العسكري بهما، ولعل هذا هو ما جعل بعض النقاد المعاصرين ينكرون فضل أبي هلال ذهابا منهم إلى أنه في كتابه هذا، جمع ما كان معروفا قبله حول هذا العلم، ففضله في ذاك فضل جامع وليس فضل مبدع [9].

1- 5- مضمون الكتاب:

وقف أبو هلال في مقدمته على موقع علم البلاغة من الفضل، ومكانه من النبل، فهو أحق العلوم بالتعلم بعد معرفة الله عز وجل. إن علم البلاغة طريق لإدراك إعجاز القرآن، وفهم أسرار الجمال، ونواحي التفوق التي تفرد بها كتاب الله تعالى وهذه غاية دينية دفعت إليها العقيدة التي وجدت من يناهضها بالتشكيك في أن حجة الرسول (ص) مثل أعلى في الفصاحة والبلاغة، وادعاء أن العرب كان في مقدورهم أن يأتوا بمثله لولا أنهم صرفوا عن ذلك.

وانبرى للرد على هؤلاء جماعة من العلماء فأخذوا يدفعون عن كتاب الله هذا الافتراء بتجلية وجوه الإعجاز فيه، وكان أبو هلال أحد أولئك المدافعين عن دينهم المناهضين لأولئك المعترضين.

نصب أبو هلال نفسه إذن للدفاع عن هذه الغاية غاية أخرى، وهي أن بالبلاغة يستطيع الأديب الناقد أن يفرق بين الجيد والرديء، وبها يستعين الأديب المنشئ على صنع القصيدة وإنشاء الرسالة.

وعلم البلاغة عند العسكري يحقق غير ما تقدم فائدتين:

أولهما: أن صاحب العربية "إذا أخل بطلبه، وفرط في التماسه، ففاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه، وعمى

---

[9] – النقد المنهجي عند العرب، الدكتور محمد مندور (القاهرة– مصر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، دت) 229.و انظر البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، بغداد، مكتبة النهضة، ط 1 ، 1384هـ –1964 ، 156.

سائر فضائله، لأنه لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله وظهر نقصه" [10].

ثانيهما: أن الأديب إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة، وقد فاته هذا العلم، "مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وغير العاقل" [11].

ولا يجعل أبو هلال علم البلاغة قصرا على الشعر فحسب، فهو علم يخص النظم والنثر على حد سواء.

1- 6- منهج العسكري:

إن أبا هلال بمنهجه الجديد يسعى إلى تيسير عملية الإطلاع والبحث على القارئ، وأن يتجاوز ما اعترى كتاب (البيان والتبيين) من نقص على مستوى التنظيم، فيؤلف تأليفا علميا منظما يلائم شرف علم البلاغة، ويحوي ما يحتاج إليه صناع الكلام ونقدته، وذلك بوضع أسس صالحة يعتمد عليها، مع تجنب الاختصار المخل، والتطويل الممل.

يقول العسكري:

"فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره، ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير، وإخلال، وإسهاب، وإهذار" [12].

1-7- تقسيم الكتاب:

أعلن أبو هلال في خاتمة مقدمته عن تقسيمه لكتابه، فجعله على عشرة أبواب، يشتمل كل واحد منها على مجموعة فصول، ومجموعها كاملة خمسة وثلاثون فصلا [13].

---

[10] – الصناعتين: 10.

[11] – نفسه: 10

[12] – نفسه: 13.

[13] – نفسه: 13– 14.

2- قضايا نقدية في مقدمة الكتاب:

2-1 الاختيارات الشعرية*:

أثار أبو هلال في مقدمة كتابه مسألة الاختيارات الشعرية، فقد عمد معاصروه وسابقوه إلى مجموعة من الأبيات الشعرية، وقع اختيارهم لها، فجعلوها من الغرر اللامعات.

والعسكري لا يجهل أهمية عملية الاختيار هذه، قال: " قيل اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أن شعره قطعة من علمه" [14].

ضاق أبو هلال باختيارات اللغويين لأبيات بعينها سحرتهم، وبالغوا في الإشادة بجودتها، وتفضيلها على ما سواها، فحاول أن ينقد هذه الاختيارات، وهذه الأحكام التي لا تستند على أسس صحيحة، ولا ذوق سليم.

ويمثل صاحب الصناعتين لهؤلاء الذين وقعوا في رذيلة الاختيار بعلماء لغويين، ذكر منهم، الأصمعي في اختياره لقصيدة المرقش التي منها قوله:

هل بالديار أن تجيب صمم // لو أن حيا ناطقا كلم [15]

قال أبو هلال: " ولا أعرف على أي وجه صرف اختياره إليها، وما هي بمستقيمة الوزن، ولا مونقة الروي، ولا سلسة اللفظ، ولا جيدة السبك، ولا متلائمة النسج" [16].

---

* انظر : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم ، د عمر الدقاق، دار الشرق العربي ، بيروت 34-46، وانظر أيضاً موسوعة المصادر والمراجع ، د. عبد الرحمن عطبة ، دار الأوواعي بيروت ، ط5 ، 1998 ، 468 – 472 .

[14] – الصناعتين: 11.

[15]– هذا البيت وارد في المفضليات برواية: لو كان رسم ناطقا كلم .

[16] – الصناعتين: 11.

فهذه مقاييس الشعر الجيد عند أبي هلال، وبها يعرف جيده من رديئه، وهي مقاييس تخص اللفظ والوزن والنسج.

واستحسن الأصمعي أيضا نقلا عن العتابي قول الشاعر:

ولو أرسلت من حـــب // ك مهبوتا من الصين

لوافيتك قبل الصـــب // ح أو حين تصلين [17]

قال أبو هلال " وهما على ما تراهما من دناءة اللفظ وخساسته، وخلوقه المعرض وقباحته" [18].

2-2- استعمال الغريب في الشعر:

يرفض أبو هلال هذا المنحى في الكلام، ويذكر بعض أنصاره من أمثال:
المفضل الضبي، وذكر عنه العسكري، أنه يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه. ونزعة المؤلف إلى رفض الغريب صريحة في المقدمة، حيث يقول ناقدا اختيارات هذا العالم اللغوي:
"وهذا خطأ من الاختيار، لأن الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف" [19].

ويضيف أبو هلال:

قال بعض الأوائل: " والاستعانة بالغريب عجز، والخروج عما بني عليه الكلام إسهاب" [20]. والحق أن الأصمعي والمفضل الضبي – ورغم ميلهما إلى الغريب- كانت جهودهما جليلة في رواية الشعر العربي وجمعه. كان الأصمعي صادقا في ما يرويه، وكان المفضل

---

[17]– نفسه: 12.

[18] – الصناعتين: 12.

[19] – نفسه: 11.

[20] – نفسه: 12.

الضبي ثقة، وكانا كغيرهما من اللغويين، يستحسنان أبياتا في معنى خاص، أو مطلع قصيدة، أو موازنة بين شاعر وآخر.

وإذا كان الاستعمال الغريب والوحشي في عصر هؤلاء، العلماء ما يقتضيه، فإن الحاجة إليه بدأت تتلاشى مع تقدم الزمن، فأصبحت الأسماع تنفر عن الوحشي من الكلام، وعما بعد عن الطبع. وفهم الغريب يقتضي التمكن من لغة الأعراب، وهذا لا يتحقق إلا لأهل الاختصاص.

وصدق ابن رشيق القيرواني حين قال: وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة، لا يعلمها إلا العالم المبرز والأعرابي القح[21].

وقف أبو هلال العسكري أيضا على اختيار علماء العربية لقول ذي الرمة:

رمتني مي بالهوى رمي ممضع // من الوحش لوط لم تعقه الأوالس

بعينين نجلاوين لم يجر فيهما // ضمان وجيد حلي الدرشامس[22]

استحسن علماء العربية هذين البيتين لما رأوه فيهما من الحسن والفصاحة، ويذهب العسكري غير هذا المذهب فيقول:

" فهذا كما ترى كلام فج غليظ، ووخم ثقيل لا حظ له من الاختيار" [23].

جاءت إذن جهود أبي هلال العسكري لتجاوز مثل هذه الاختيارات، ومثل هذا الذوق الذي يميل إلى الغريب، كما حاول الرجل تصحيح كثير من هذه الأحكام التي يغلب عليها أثر الارتجال، فسعى إلى وضع أسس ثابتة، تصدر عنها أحكام أكثر دقة وأقرب كثيرا إلى الصواب فوضع كتاب الصناعتين : الشعر والكتابة: والذي هو كتاب في صناعة الكلام نثره ونظمه.

---

[21]– العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه: ابن رشيق القيرواني. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة (بيروت– لبنان، دار الجيل للنشر والتوزيع، هـ1401 – 1981م/265/2).

[22] – الصناعتين: 12.

[23] – نفسه: 12.

خـاتمـة:

ومن خلال عرضنا لهذه المقدمة تبينا غاية أبي هلال في كتابه ومقصده منه ومذهبه في الكلام، إن العسكري رجل صنعة، فلا يدرس في الأدب غيرها، تأثر بمن سبقه كالجاحظ، وقدامة بن جعفر، وعبد الله بن المعتز، وابن قتيبة، وكان إعجابه منصرفا إلى هذا النوع من الأدب الذي يحفل بكثير من المحسنات، حتى إننا نراه يعد خمسة وثلاثين نوعا من أنواع البديع.

المصادر والمراجع

1- البلاغة عند السكاكي ، أحمد مطلوب، بغداد ، مكتبة النهضة ، ط1

1384ه-1964.

2- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(255ه) ، ت: عبد السلام هارون ، دار الفكر ودار الجيل ، بيروت ، 1410ه-1990.

3- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. الطبعة الخامسة (بيروت- لبنان، دار الجيل 1981).

4- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق مفيد قميحة، الطبعة الثانية (بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية 1984).

5- الكشف عن مساوئ شعر المتنبي: الصاحب بن عباد، تحقيق محمد حسن آل ياسين (بغداد- العراق، مكتبة النهضة 1965).

6- مصادر التراث العربي، في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، عمر الدقاق، دار الشرق العربي، بيروت .

7- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، الطبعة الأخيرة منقحة مضبوطة (مصر، مكتبة عيسى الحلي، د.ت).

8- موسوعة المصادر والمراجع، د.عبد الرحمن عطبة ، دار الأوزاعي ، بيروت ، ط5 ، 1998م.

9- النقد المنهجي عند العرب: محمد مندور (القاهرة- مصر، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت).